نبذة

عن تاريخ الموسيقى الغربية

«لطالما سررت لمن يبغي معرفة نبذة
عن أشهر عبقرية الفن في الغرب»

لسنا نعدو الحقيقة حين نذكر أن الانجلو سكسون كانوا في مؤخرة الأمم التي برز فيها نجم الموسيقيين العالميين . فما أن استكملت الموسيقى أسباب نمائها لدى الغربيين وبدأت تتحلل من أغلال الكنيسة ، وتخرج الى الحياة لتصورها وتعبر عنها ، وتدع القواعد القديمة البالية التي كانت تجعل من الموسيقى مجرّد فن يباهت ، لتصبح من بعد لسان المؤلف المعبر عما يختلج نفسه وما يجيش فيها من شتى أحاسيس الحياة ، حتى بدأت تجوز مرحلة التحول الأساسية ، تلك المرحلة الحاسمة التي شطرته شطرين هامين : الأول ، العصر الكلاسيكي الذي يستغرق القرن الثامن عشر ، والثاني العصر الرومانسي الذي يقفّ مع بداية القرن التاسع عشر .

وإذا نحن استعرضنا أسماء كبار الموسيقيين الانجليز خلال القرن الثامن عشر ، الذي استكملت فيه الموسيقى الكلاسيكية مراحل نموّها وازدهارها ، لما وجدنا غير « جون فيلد » على حين نجد من الألمان مثلاً : باخ ، وهاندل ، وهايدن ، وجلوك ، وبيتهوفن وفيبر وغيرهم . فاذا ما انتقلنا الى القرن التاسع عشر ، فلا نكاد نجد من الانجليز غير : إلجار ، وسوليفان ، في حين نجد من الألمان : مندلسون ، وشومان ، وفاجنر وبراهمس وغيرهم .

وهذه حقيقة يعترف بها الانجليز أنفسهم في مؤلفاتهم . ويحاول بعضهم أن يعزوها الى أسباب متعدّدة ، نقتصر هنا على ثلاثة منها وهي أهمها :

الأولى : انصراف القوم الى الفتح والكشف وارتياد البحار للتجارة ، مما يشد بهم عن

دنيا الموسيقى الرقيقة المشبعة بالأحلام والخيال ، الى دنيا الواقع الجاف والمعامرات القاسية

أما السبب الثاني فهو أن بروسيا وإيطاليا ووسط أوربا كانت مزدحمة بأوساط الثقافة الموسيقية المتعدّدة ، تبعاً لكثرة عدد المقاطعات والولايات ، حيث كان لكل حاكم أو أمير فرقة موسيقية خاصة ، وكان التنافس بينها على أشدّه وهذا على النقيض الحال في انجلترا حيث كان عدد هذه الأوساط قليلاً .

أما السبب الثالث ، وهو أقل أهمية ، ويمكن وصفه بأنه العذر الذي هو أقبح من الذنب ، فهو أن هاندل ومن بعده هايدن ، زارا انكلترا ولقيا من أهلها ترحيباً وإعجاباً ، حتى لقد انصرف القوم بسماعهما وتشجيعهما عن الإلتفات الى الموسيقيين الوطنيين .

على أنّ من الإنصاف أن نذكر أنه كان لموسيقيين الانجليز في ميدان الموسيقى القديمة ، الوثيقة الصلة بالمناحي الدينية ، باع كبير ونصيب ملحوظ . ففي خلال القرن السادس عشر نبغ منهم كثيرون مثل : تالبز ، وبيرد ، وجيبونز . وفي القرن السابع عشر ، ظهر « هنري پيرسل » الذي يضعه الانجليز في طليعة موسيقييهم . وفي العصر الحديث بدأ نفر من نوابغ الانجليز يبرعون في التأليف الموسيقي من أمثال : تايلور ، ووليامز ، وراتن ، وبليس ، وأيفيل هيث ، ووالاس ، وماكينزي وغيرهم .

وإني لأستصيح القارىء عذراً في هذه التقدمة ، التي لم يكن من إيرادها بد ، والتي جرّ إليها تداعي المعاني ، لبحث تاريخ علاقة الانجليز بالموسيقى . ولأنتقل سريعاً الى صميم موضوعنا فالمجال ضيّق والموضوع لا يتسع له حديث

يكاد القرن السابع عشر يخلو من موسيقي عالمي ، إذا استثنينا « هنري پيرسل » الانجليزي (١٦٥٨ — ١٦٩٥) الذي كتب كثيراً للكنيسة ، كما كتب للاوبرا ومجموعة من « موسيقى الغرفة Chamber Music [1] » وخاصة من نوع « السوناتا » [2]

وبجانب هذا ، سجل القرن السابع عشر ، في عام واحد ، مولد اثنين من أشهر عباقرة الموسيقى . ففي عام ١٦٨٥ ، شهد العالم مولد كل من « جون سباستيان باخ » ، و « جورج

(١) موسيقى معدة لتعزف في حجرة كبيرة كالتي يقام فيها الباليه أو كما نقول بالعربي ، وأعد غرفة صغيرة

(٢) قطعة موسيقية تعزف على آلة واحدة أو آلتين

فردريك هاندل ، وكلاهما ألماني في حين شيد القرن الثامن عشر الجزء الأكبر من حياتهما الحافلة ، إلى أن أفل نجم باخ عام ١٧٥٠ ، ومن بعده هاندل عام ١٧٥٩ .

ويعتبر باخ من أعظم الموسيقيين العالميين ، ويعده البعض أعظمهم على الإطلاق ، اللهم إلا إذا ذكروا بيتهوفن . ومن أهم مؤلفات باخ قطعه التي من نوع « الكونشرتو concerto » (١) و « الأوراتوريو oratorio » (٢) و « الفنتازيا » . وقد تدرّج من عازف على الأرغن « organist » بالكنيسة ، إلى عازف على الكمان violinist بفرقة أحد الأمراء إلى قائد conductor لفرقة أخرى . وقد كان منزله في ليبزيج متنديً موسيقيًّا حافلاً .

أما هاندل ، فلم يكن أبوه ، مثل والد باخ ، موسيقيًّا ، ولا كان يميل حتى للموسيقى ، فهو طبيب ولا يريد لابنه أن ينشأ موسيقيًّا . ولكنه رضخ أمام رغبته الجارفة وعبقريته المتفجرة منذ صباه ، حيث كان يرتجل التأليف الموسيقي ويتقنه . وقد طاف بإيطاليا وانجلترا ، التي ألف فيها أوبرا « رينالدو » . كما اشتهر بقطعته موسيقى الماء water-music . وكذلك قطعه التي من نوع الأوراتوريو ، وفي مقدمتها المسيح ، وإسرائيل في مصر .

ويجيء باخ وهاندل في الترتيب التاريخي ، فرانز جوزيف هايدن الألماني ١٧٣٢ — ١٨٠٩ . وبهذا نبدأ في القرن الثامن عشر . ولقد لاق هايدن في صغره بعض الاضطهاد ، أثر شقاق وقع بينه وبين رئيس المنشدين في الكنيسة التي كان يعمل بها منذ الثامنة من عمره . ولكن سرعان ما ابتسم له الزمان ، فاشتغل حيناً رئيساً لبعض فرق الأمراء الأقطاعيين وفي عام ١٧٩٠ ، دعته انجلترا لزيارتها ، وكان عمره حينئذ ٥٨ عاماً وهناك ، منحته اكسفورد لقب دكتور في الموسيقى ، وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين البرنس أوف ويلز كما طابت له الإقامة بها حيث كتب بعض السيمفونيات الرائعة التي من أشهرها المفاجأة surprise-s ، ولندن سيمفوني وفي السادسة والسبعين عاوده الى حفل موسيقي ، فوق مقعد ، حيث شاهد لآخر مرة ، عرض قطعته الشهيرة «البعث» وهي من نوع الأوراتوريو.

---

(١) قطعة طويلة يعزفها الاوركستر كله مع آلة معينة واحدة فاذا تضمنت عزف النغط الاكبر من العزف (٢) موسيقى مقدسة لاحد انبياء دينه

وفي منتصف العرض ، رأوا ، مراعاة لصحته ، إرجاعه الى بيته ، وسط هتاف الجماهير وتكريمها له . وقبيل مغادرته المكان ، تقدم له موسيقي شاب من تلاميذه ، كانت شهرته قد بدأت حينذاك في البزوغ ، فطبع على جبينه قبلة ، وكان هذا الشاب هو بيتهوفن . وبعد هذا الحفل بقليل مات هايدن .

وبعد هايدن نجد الموسيقي العبقري « ولفجانج موزارت » وهو نمساوي المولد ١٧٥٦ — ١٧٩١ . وقد نشأ وترعرع في عائلة موسيقية ، وبدأت موهبته الموسيقية في الظهور منذ كان في الثالثة من عمره ، حتى إذا ما بلغ السادسة كان يعزف في حضرة القيصرة « ماريا تريزا » في ڤينا . وهناك في قصرها المقرف كان يحلو لموزارت أن يلعب دائماً مع ابنتها « ماري انطوانيت » التي أصبحت بعد ذلك ملكة الفرنسيين وطوّحت برأسها مقصلة الثوار . وطافت عائلة موزارت الموهوبة وعلى رأسها الأب « ليوبولد » والشقيقة « ماريانا » ولفجانج ، بسالزبورج وباريس ولندن ، حيث عُرِفَ موزارت في الأخيرة لجورج الثالث كما ألف هناك سيمفونيته الأولى . ولعله من المؤلم أن نعلم أنه بعد وفاته في السن الخامسة والثلاثين ، ذهبت زوجته الى المقابر فلم تتمكن من التعرف على قبره ، من فرط التبدل والبؤس الذين طرآ عليه في أخريات حياته ، فات مغموراً منسيًّا من معاصريه . وقد اشتهر موزارت بسيمفونياته الأربعين واوبراته التي منها الناي السحري : والفيجارو ، والدون جيوفاني .

والآن ، ننتقل إلى ذلك النابغة الذي نال بحق لقب « سيد الموسيقى » : « لودفيج فان بيتهوفن » ١٧٧٠ — ١٨٢٧ . وهو الذي ما صحت له فطنة إلا رجزَتْ بجدارتها بالخلود . وقد اشتهر بسيمفونياته التسع التي على رأسها السيمفوني التاسع : الانشاد choral والسادس الريفي pastoral . كما اشتهر بقطعه الاحدى والثلاثين التي من نوع السوناتا ومنها قطعته الفريدة « ضوء القمر » . كما أن له افتتاحيات لمجموعة من الأوبرات على رأسها « فيدليو » وليونورا ، وكوريولان ، واجمونت . وله غير هذا قطع متعددة من الأنواع الأخرى وعلى رأسها « الكونشرتو » وخاصة الخامس للبيانو (الامبراطور) وموسيقى الغرفة من الثلاثيات والرباعيات والسباعيات .

ويعتبر بيتهوفن موسيقاه ، فاتحة عصر الرومانتيك الموسيقي ، الذي يشير بالناحية التعبيرية المعنوية ، لا بمجرد النغم الحلو المسترسل . فما تكاد تسمع قطعة لبيتهوفن ، وتتعمق في فهمها ، إلا خيل لك أنه يحدثك ، عارحاً لك خلجات هذه النفس وما يعتورها من ألم وضيق وبأس وشجن ، وأذكار مضطربة متلاحقة ، أو من فرح وبهجة واستبشار ثم عزم واستهزاء بالحياة وأكدارها . الخ . فكأنما تقرأ قصيدة من الشعر الثري بالمعاني العميقة ، أو قصة حافلة بالتصوير النفساني الرائع . وبهذه الميزة الفذة في موسيقاه ، وهي العمق ، امتاز بيتهوفن على موزارت وهايدن . وقد كانا استاذيه !

وثمة ميزة هامة برزت في موسيقى بيتهوفن أيضاً ، وهي حبه للطبيعة وبراعته في تصوير مشاعره نحوها ، وهو ما أبدع فيه في السيمفوني السادس (Pastoral) أي الريفي . فقد كان بيتهوفن فناناً حقاً . كان يهوى الشعر والرسم إلى جانب الموسيقى . وكان كثير الضيق بالناس ، حتى اذا ما لحقه الصمم أسبغ في شبه عزلة نفسية عن الناس ، يعيش للطبيعة والموسيقى التي شاء القدر أن يحرمه من أن تسمعها أذناه ، فتجاوبت بها نفسه وروحه ، حتى أبدع لنا هذه المعجزات الخالدات وذلك الأثر الفني الذي لا يفقد .

ومن عاصروا بيتهوفن ، عبقري آخر من عباقرة الموسيقى ، ولد بعده بسبعة وعشرين عاماً ، ولحقه الى القبر بعد عام من وفاته ، كما دفن على مقربة منه ، وفوق قبره ، كتبوا هذه العبارة « لقد دفنت الموسيقى هنا ثروة باذخة ، ولكنها ذات آمال متجددة » . ذلكم هو فرانز شوبيرت (نمساوي المولد ١٧٩٧ — ١٨٢٨) وعاصر السيمفونية الثالثة ، والنشيد الحربي وقد كتب كثيراً للبيانو ، كما بلغت الأغاني التي كتبها حوالي ستمائة أغنية . وكانت حياته قصيرة جداً ماتت في الحادية والثلاثين ، ولكنه ترك موسيقى خالدة بعمقها من الناحية « الرومانتيكية » .

وفي عام واحد أيضاً ، أنجب عالم الموسيقى عبقريين آخرين ، ولد أولهما فيرو روبرت شومان (ألماني) والثاني فردريك شوبان (بولندي) .

ولروبرت شومان قصة حياة مفعمة بالفخر والمآسي معاً . وقد وصفت موسيقاه من الناحية التحليلية بأنها رومانسية أكثر منها كلاسيكية . كما أنه يعتبر الناقد الموسيقي الأول الذي أصدر

صحيفة موسيقية كان لها أثرها الملحوظ في التقدم الموسيقي وفي تشجيع المؤلفين الناشئين وفي أخريات حياته ، انتابه نوبات عصبية واختلال عقلي . وتوفي في إحدى مستشفيات الأمراض العقلية ، وهو في السادسة والأربعين من عمره . وعاشت كلارا من بعده أربعين عاماً أخرى ، وقد كان شومان يكبرها بتسع سنوات . وأمضت حياتها بعد وفاته تطوف بلدان أوربا ، ولا تعزف غير قطع زوجها العبقري ، وفي مقدمتها معزوفات « البيان » الذي كان شومان من أساطينه ، ومن أشهرها الكونشرتو والكرنفال .

وفي أحد أعداد صحيفته الموسيقية ، كتب شومان عن موسيقي ناشيء « ارفعوا قبعاتكم يا سادة . . . لهذا العبقري » وكان العبقري الذي عناه شومان بقوله هو معاصره « فردريك شوبان » الموسيقي البولندي العظيم ١٨١٠ — ١٨٤٩ . وقد كان فردريك يعزف البيان منذ صغره ، ويضرب به المثل عند ذكر الفنان الوطني الأصيل . طاف برلين وفيينا وبراج ودرسدن ثم باريس ، حيث كان ملجأ البولنديين المشردين من بلادهم والمجاهدين في سبيل حريتها . وأغرم زمناً بالكاتبة الفرنسية « جورج ساند » . كما قام بزيارة انجلترا حيث كان يحيي الحفلات الموسيقية الرائعة ، ويخصص دخلها الضخم لمواطنيه المكافحين . ومات في التاسعة والثلاثين من عمره وكان آخر ما طلبه قبل وفاته هو أن يسمع شيئاً من موسيقاه . وشوبان معروف بطابعه المميز في عزف البيانو مما يسمونه الجرس الخفيف Lightouch وقد ترك للعالم في طرق العزف على تلك الآلة من الدروس والأساليب الجديدة ما يُعدّ من الناحية الفنية ذخراً غالياً . و أنغامه التي طبقت شهرتها الآفاق ، بروحها الثائرة هي « البولونيز » كما اشتهر فردريك بنوع المعزوفات nocturne ، ويقصد بها تمثيل ليل الحالم الهادىء الساحر . ومخترع هذا النوع ، الموسيقي الانجليزي هو جون فيلد ١٧٣٢ — ١٨٣٧ ولكن روسيا هي التي آوته حيّاً وميتاً . وقد تتلمذ على يديه جلينكا مؤسس المدرسة الروسية .

وقبل أن تتقدم بنا الأيام ، نذكر « فليكس مندلسون » الألماني ١٨٠٩ — ١٨٤٧ . وقد احتوت جرابه روحاً مرحة مشرقة . وفي السابعة عشرة من عمره كتب افتتاحية حلم ليلة صيف « لشكسبير » . وكتب بعد ذلك مجموعة من السيمفونيات والكونشرتات ،

منها السيمفوني الاسكوتلندي والايطالي ، وكونشرتو للكمان ، وآخر للبيانو ، عدا قطعاً متعدّدة للبيانو وموسيقى الغرفة .

وفي عام واحد ، شهد العالم مولد عبقري فنّ الأوبرا : ريتشارد فاجنر (الألماني) وفردي (الايطالي) ، عام ١٨١٣ . وكان قد سبقهما « كارل ماريا ڤون ڤيبر » (الماني) ١٧٨٦ — ١٨٢٦ مؤلف كل من « فريشوتز » و « أوبرون » من نوع الأوبرا ، و « الدعوة الى الثالس » من نوع الثالس ، عدا سيمفونيتين وقطعتين على البيانو من نوع الكونشرتو ومجموعة من الأغاني وغيرها . وقد كان فاجنر يتخذ ڤيبر قدوةً له . كما أنه تأثر أيضاً بكل من بيتهوڤن ووبخ .

وطاف فاجنر باريس حيث كتب « ريينزا » ، وبلندن حيث كتب « الهولندي الطائر » وكان يكتب الأوبرا ذاتها ويهتم بتنسيق الألفاظ مع موسيقاه التي تميزت بطابع الدراما . ولاق في حياته بعض الصعاب وخاصة المالية ، الى أن أنقذه لودفيج الثاني ملك بڤاريا الذي كان معجباً بموسيقاه . ومن أشهر أوبراته أيضاً : تانهوسار Tannhauser و « لوهنجرين Lohengrin وتوفي عام ١٨٨٣

أما « يوسف فردي » ١٨١٣ — ١٩٠١ ، فقد أخرج الأوبرا الايطالية من نطاق النغم الرتيب والتقليد الجامد الى روح الدراما القوية المعبّرة ، حتى يقرّبها من أوبرات فاجنر . ومن أروع ما ألف « عايدة » وتبدو روح فاجنر في مؤلفات فردي المتأخرة مثل «أوتلو». وله عدا ذلك مجموعة أخرى كبيرة منها ماكبث ، وريجوليتو ، وترووبادور .

وفي عام ١٨٣٣ ، ولد في مدينة هامبورج « جوهانز برامس » وهو يحق من أعظم المؤلفين في دنيا الموسيقى ، رغم أنه لم يكتب شيئاً للأوبرا . في موسيقاه نفح روحاً تماثل روح بيتهوڤن ، وقد كانت له الأثر المتعدد في أثر في حياته . وموسيقاه كعلته بالموسيقار المنغاري الشهير « فرانز ليست » ١٨١١ — ١٨٨٦ صاحب « الرابسودي المنغارية » . وكعلته بشومان وزوجته كلارا . وبرامس في السيمفوني والكونشرتو باع طويل . وله في هذا أربع سيمفونيات رائعة وقطعتان على البيانو وأخرى على الكمان من نوع الكونشرتو وافتتاحيتان عدا موسيقى الغرفة . وبعد أن درست مناقشات طويلة بين المحبين بكل من

فجأة وبرامس فترة من الزمن وتعدّت الى كل المعنيين بالموسيقى فقسمتهم معسكرين . ولكن سرعان ما هدأت هذه المناقشات ووقفت عند حد ، ذلك أنه تبين للجميع أن لكل من الموسيقيين طريقه الخاص الذي يسير فيه .

وقد كان برامس يبدي إعجابه دائماً بجوهان ستراوس (النمساوي) ١٨٢٥ — ١٨٩٩ صاحب قاص الدانوب الأزرق وهو الموسيقي الذي لقبوه بملك الفالس وتعد مؤلفاته من ذلك النوع بالأربعمائة معظمها جميل . ويذكر أن أحد المعجبين طلب من برامس مرة أن يكتب له في دفتره قطعة تذكارية فما كان منه إلاّ أن كتب له الأحرف الموسيقية الأولى من مقدمة الدانوب الأزرق ثم سطر تحتها ما معناه « آسف لأني لم أكن مؤلف هذه النغمات العذبة » ثم أمضى تحتها « جوهان برامس » .

وفي الاستعراض الاجمالي ، لا بدّ لنا من أن نولي وجهنا قليلا شطر فرنسا التي كانت دائماً من مواطن الحرية والفن الرئيسة في العالم . وهناك نجد في مقدمة موسيقييها « سيزار فرانك » ١٨٢٢ — ١٨٩٠ . وقد ولد في بلجيكا ولكنه أمضى معظم حياته في باريس ، كعازف على الأورغن وأستاذاً . وفي هدوء أنتج فرانك بعض الموسيقى التي ترضع في الدرجة الأولى كسيمفونيته الوحيدة وهو ثانيا الكمان ومؤلفاته على الأورغن والبيانو . وكان يستمد أساليبه من باخ وبيتهوفن ولكن تآليفه الهرمونية وألوان أنغامه تميل ميلاً ظاهراً الى المدرسة الحديثة .

وفي مقدمة الموسيقيين الفرنسيين أيضاً نجد « هكتور برليوز » ١٨٠٣ — ١٨٦٩ وقد برع برليوز في الموسيقى ذات البرنامج والمليئة بالتأملات والخيالات المتضاربة ، والروح التصويرية القوية . ومن أروع مؤلفاته « السيمفوني الفانتازتيك » التي تعتبر من النماذج الواضحة للموسيقى ذات البرنامج .

وقد كان لفن الأوبرا الذي الفرنسيين مقامه فكان من مؤسسيه عندهم كل من لولي ، ورامو . وهلا شأن الاوبرا على يدي جورج بيزية ١٨٣٨ — ١٨٧٥ الذي تقف أوبراه المعروفة « كارمن » ، جنباً الى جنب ، مع « عايدة لفردي » . ثم شارل جونو الذي لاقت أوبراه « فوست » بقصتها العالمية ولحنها العاطفية نجاحاً كبيراً . ومن الفرنسيين في

الأوبرا أيضاً « جيرار سامبيه » وهو أكثر المؤلفين العاطفيين تجاوباً ، و « كاميل صانت صانس » وان كانت أوبراه « شمشون ودليلة » تُعد أقل توفيقاً من مؤلفاته الموسيقية في الفروع الأخرى .

وقبل أن نمسح الموسيقيين الفرنسيين جانباً لا نجد بدّاً من الإلماع الى « كلود ديبوسي » ١٨٦٢ — ١٩١٨ فهو المؤسس الحقيقي للمدرسة الحديثة ، بتآليفه الهارمونية ونغماته ذات الألوان المبتدعة التي اعتبروها ثورة في الفن الموسيقي كله . وقد تبعه في روحه « موريس راڤل » ١٨٧٥ — [illegible] ومن بعده كل الموسيقيين في القرن العشرين في المدرسة الحديثة المعاصرة .

وفي ايطاليا نجد الى جانب ڤردي الموسيقار الخالد روسيني ١٧٩٢ — ١٨٦٨ وهو ينتمي في الأكثر الى المدرسة الكلاسيكية وله خمسة وثلاثون أوبرا في مقدمتها الاثنتان المشهورتان « حلاق أشبيلية » و « وليم تل » . ومن تبعوا ڤردي في الأوبرا الايطالية « جياكومو پوتشيني (١٨٥٨ — ١٩٢٤) الذي ترك مجموعة جيدة من الأوبرات المشهورة منها « لاتوسكا » و « مدام بترفلاي » و « البوهيمية » .

وفي اركن الشمالي الغربي من أوربا ، حيث تجثم بلاد اسكندناوة الشاهقة ذات الطبيعة الجبلية الساحرة ، أنجبت النروج نغرها في الموسيقى « ادوارد جريج » ١٨٤٣ — ١٩٠٧ وقد كان من المغرمين بالموسيقى والأغاني الشعبية بجانب ما ألف في الخط الكلاسيكي كالسياق والكونشرتو . ومن أجمل مؤلفاته موسيقى مسرحية « پير جينت » التي ألفها الكاتب النروجي الباثي « ابسن » .

أما أمريكا ، فإن من القلائل الذين أشتهروا في عالم الموسيقى « ادوارد ماكدويل » ١٨٦١ — ١٩٠٨ . وقد كان أستاذاً للموسيقى بجامعة كولمبيا وكانت من أكبر أمانيه في فنه أن يجعل موسيقاه في جميع أنحاء أمريكا . وقد برز ماكدويل في الموسيقى الرومانتيكية ومن أشهر قطعه « نغمة الريح » و « الزهرة الوحشية » و « ماريونيت » وتتميز جميعاً بالخيال الطافح والتصوير الجميل

أما فنلندا فقد أنجبت « سيبليوس » وهو من الموسيقيين المعاصرين . (ولد عام ١٨٦٥) ومن أبرز موسيقيي المدرسة الحديثة . ومن النابغة المعاصرين أيضاً ريتشارد ستراوس النمساوي الذي ولد عام ١٨٦٤ وهو من مؤلفي الأوبرا البارعين

والمقتفين أثر شاجنر فيها . فهي عنده تتميز بناحية « الدراما » في موسيقاها ، أما مؤلفاته من نوع السيمفوني فتتميز بأنها من بدائع الموسيقى ذات البرنامج . أما الموسيقار الروسي المعاصر ايجور سترافنسكي الذي ولد عام ١٨٨٢ فهو من أشهر المؤلفين لموسيقى « الباليه » وقد ألف في هذا الباب مجموعة تعتبر من المعجزات الفنية وخاصة من الناحية الهرمونية ، وفي مقدمتها « بتروشكا » و « الطائر الناري » و « قدسية الربيع »

أمّا وقد رسى بنا المطاف عند روسيا ، فإننا نذكر هنا « جلينكا » (١٨٠٤ — ١٨٥٧) الذي يُعدُّ مؤسس المدرسة الروسية في الموسيقى . وقد يسرت له أسباب الحياة ، إذ كان من النبلاء فترك وظيفته الحكومية وهو في السادسة والعشرين من عمره ، سعياً وراء الموسيقى . وفي إيطاليا ألّف أوبراه المشهورة « حياة القيصر » ذات الطابع القومي . وبعد جلينكا نجد « فرقة الخمسة » أو « القوميين » الذين تحمسوا لإيقاظ الموسيقى الروسية وانقاذها بعد جروب نابليون المدمرة . وكان على رأسهم « بالاكيريف » مؤسس الجماعة ١٨٣٦ — ١٩١٠ ، ومسيزاركوى ١٨٣٥ — ١٩١٨ ، والكسندر بورودين ١٨٣٣ — ١٨٩٧ صاحب أوبرا « الأمير ايجور » ، ومودست موسورجسكي ١٨٣٩ — ١٨٨١ صاحب أوبرا « بوريس جودونوف » ، وأخيراً ريمسكي كورساكوف ١٨٤٤ — ١٩٠٨ وهو أكثرهم ميلاً في موسيقاه نحو الروح الشرقية ، ومن أروع قطعه « شهرزاد » و « الديك الذهبي » .

أما زعيم الموسيقيين الروسي بدون شك فهو « بيتير تشايكوفسكي » ١٨٤٠ — ١٨٩٣ وهتاز موسيقاه بعدم التقيد مع القوة والروح العاطفية ، وقد كان للأرملة الثرية المحبة بموسيقاه « نون ميك » أثر كبير في حياته بفضل مساعداتها الأدبية والمادية . وقد شاهدنا منذ مدة ما يمثل النصف الثاني من حياته ولكنه محرّف من الناحية التاريخية . وفي مقدمة مؤلفاته سيمفونياته الرابعة والخامسة والسادسة وافتتاحية روميو وجولييت سنة ١٨٧٢ ، وثلاث كونشرتات للبيانو وواحدة للكمان ثم النشيد السلافي ، وغيرها الكثير من مختلف الألوان الموسيقية الأخرى

وبعد ، فما قصدت من هذا المقال ، سوى أن ألم إلمامة سريعة ، بأشهر من خلدتهم موسيقاهم ، وارتفعت بهم عبقريتهم في عالم الألحان ، فخلفوا للانسانية ثروة خالدة من النغم الملائكي ، لا تبلى تكرره الأجيال المتعاقبة ، وتتجاوب به أصداء الأيام ، فما الموسيقى سوى لغة الانسانية الطليقة التي لا تعرف قيود الأجناس والأوطان .

جامعة فؤاد الاول — سمير عطوم